تَعظِيمُ اللهُ تَعَالى فِي هِدايَات القرْآن الكَريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

تعظيم الله عز وجل في القرآن الكريم
من خلال سورة يوسف عليه السلام
(دراسة تحليلية نموذجية)

اسم الباحث

د/ محمد أمين الله آدمو الغمبري

د. محمّد أمين الله آدمو الغمبري

تعظيم الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم من خلال سورة يوسف عليه السلام

دراسة تحليلية نموذجية

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين وهو ربُّ العرش العظيم، القائل في العرض السَّماويِّ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، والصَّلاة والسلام الأتمان الأكملان علىٰ أفصح ناطق بالضَّادّ، وهو الرسول الأحمد لله لربِّه العظيم، والقائل في حديثه الشَّريف: «إِنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ، يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ»[1]، والقائل أيضا: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ»[2] وعلىٰ آله وصحبه ومن والاهم أجمعين.

إنَّ تعظيم الله تعالىٰ أصل العبادة وحقيقتها، والله سبحانه وتعالىٰ قد أمر بتعظيمه بتسبيحه قائلا: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [الواقعة]، وكيف لا وهو ربنا الأعلىٰ الأحق بتعظيمه بالتحميد والتسبيح ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلىٰ] ليفيد كل هذا أن العظمة الكاملة لا تتحقق إلا بالله عز وجل، ومن نازعه في ذلك فقد ضل وغوي وكان مصيره النار خالدا فيها. وهذا حسبما دل عليه ما ورد في الحديث القدسي من قوله تعالىٰ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[3].

وتأسيسا علىٰ هذه الحقيقة الثابتة يأتي هذا البحث دراسة تحليلية موجزة تتخصص في البيان عن تعظيم الله تعالىٰ من خلال (سورة يوسف) عليه وعلىٰ رسولنا أفضل الصلاة والتسليم، وخصوصا في غضون قصته المسرودة فيها بعناصرها العديدة بدأ من نشأته، ورؤياه، إلىٰ حالته الحرجة التي ألفىٰ نفسه فيها حين إلقائه في غيابات الجب وخاصة حين ألقوه في البئر، والتقاطه منها، فبيعه واتخاذه ولدا في بيت عزيز مصر، ثم دخوله السجن وما تلا ذلك في داخله من تعبيره للناس رؤياهم وتأويله لهم الأحاديث، وما جرىٰ بعد خروجه منه من استخلاص الملك له لنفسه قبل أن يتحول أخيرا وزيرا رسميا وملكا علىٰ أهل مصر، وكذلك عفوه علىٰ إخوته الذين كادوا له من قبل كيدا، ولقاؤه مع أبيه مرة أخرىٰ. يدرس الباحث من خلال هذه الأحداث في إطار هذه القصة –وهي أحسن القصص طبعا– ما فيه من آيات تتضمن تعظيم الله تعالىٰ تصريحا أو تلميحا أو تضمينا حسب ورودها في هذه السورة المباركة، راسما للبحث بعد مقدمته هذه خطوطا عريضة جارية حول المحاور الآتية:

---

(١) أخرجه التّرمذيُّ (٣١١٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٠٣٩).

(٣) أخرجه أحمد (٩٣٥٩).

١- المحور الأول: لمحة سريعة في تعظيم الله تعالىٰ ومفهومه في الكتاب والسنة.

٢- المحور الثاني: تعظيم الله نفسه بنفسه في سورة يوسف عليه السلام.

وذلك يغطي الجوانب التالية:

أ- تعظيمه تعالىٰ نفسه بنفسه في إنزاله الكتاب العزيز المعجز.

ب- تعظيمه تعالىٰ نفسه بنفسه في اجتبائه يوسف عليه السلام نبيًّا رسولًا، ومعلِّمًا بعض المغيبات من الأمور، وإظهار شأنه العجيب فيه عليه السلام من خلال قصته مع إخوته الأسباط عليهم الصلاة والسلام.

ج- اثباته تعالىٰ تفرده باستجابة دعاء عبده واصفا نفسه ببعض من أسمائه الحسنىٰ.

د- تفضيل الله بعض الخلق علىٰ بعض مرهون بمشيئته، وليس للخلق فيه اختيار.

٣- المحور الثالث: تعظيم الله تعالىٰ من قبل غيره في السورة.

وهذا كذلك يشمل العناصر الآتية:

أ- تعظيم الله تعالىٰ من قبل نبي الله أبي يوسف يعقوب عليه السلام ببعض صفات الله وأفعاله العجيبة.

ب- تعظيم الله تعالىٰ من قبل نبي الله يوسف عليه السلام وهو بطل القصة في منن الله وآلائه عليه من بداية القصة إلىٰ آخرها.

ج- تعظيم الله تعالىٰ من قبل بعض أشخاص القصة كإخوة يوسف عليهم السلام، ونسوة في المدينة وغيرهم.

- الخاتمة.
- قائمة المصادر والمراجع.

والله ولي التوفيق،،

المحور الأول: لمحة سريعة في تعظيم الله تعالى ومفهومه في الكتاب والسنة

بالرجوع إلىٰ أصل الكلمة يعني التعظيم من حيث مدلوله اللغوي، نرىٰ أنه من العِظم، بكسر الذال، خلاف الصغر، وعظّمه تعظيما، وأعظمه: أي فخّمه وكبّره، واستعظمه: أي رآه عظيما[١]، والعظيم الذي جاوز قدره وجلّ عن حدود العقول[٢]. ومفهوم كلمة التعظيم عرضا وطولا هو: العبادة لله وحده مخلصا له إياها، لأن ذلك حسب تعريف المناوي: فعل المكلّف علىٰ خلاف هوىٰ نفسه تعظيما لربه. وقيل: إن العبادة هي: تعظيم الله وامتثال أوامره[٣].

ولقد تواترت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة في بيان تعظيم الله وفضله بما فيها قوله تعالي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ويفهم من ذلك علىٰ حد تفسير القرطبي رحمة الله عليه: «جعلها الله بينه وبين عباده لأنها تضمنت تذلل العبد لربه وطلب الاستعانة منه، وذلك يتضمن تعظيم الله»[٤]. ومن ذلك قوله تعالىٰ عند ذكره صفات عباده المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢﴾ [الرعد]، ومفهوم ذلك كما يقول الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ابتغاء وجه ربهم أي طلب تعظيم الله تنزيها له أن يخالف الإنسان في أمره أو يأتي أمرا كره إتيانه فيعصيه به»[٥]. وقوله تعالىٰ في قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح]. وذلك عبارة عن تعظيم الله والعمل بطاعته سبحانه[٦]، كما قال الثعالبي.

وفي حديث جبير بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيثُ قال: أتىٰ رسول الله ﷺ أعرابيٌ، فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك علىٰ الله ونستشفع بالله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «**ويحك، أتدري**

---

(١) القاموس المحيط (١/ ١١٣٩).

(٢) لسان العرب (١٢/ ٤٠٩).

(٣) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف (٢٣٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٩٤).

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (١٣/ ١٤٠) بتصرف يسير.

(٦) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٤٢٩).

ما تقول؟»، وسبَّح رسول الله ﷺ، فما زال يسبِّح حتىٰ عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثمّ قال: «**ويحك، إنَّه لا يُستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك**»[1]

فإنَّ قول الأعرابيِّ هذا: «فإنا نستشفع بالله عليك» جعل الله -سبحانه وتعالىٰ- في مقام الشَّافع عند رسوله ﷺ، وهذا عكس تعظيمه وتنقيصٌ من قدره -جلَّ وعلا-، وتحسرًا من ذلك سبَّح الرَّسول ﷺ منبِّهًا إيَّاه -أي: الأعرابيّ- إلىٰ هذا الخطأ الفاحش، ولذا قال: «**ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك**».

إن هذه الدلائل ونحوها من الكتاب والسنة تفيد مفهوما واضحا لمعنىٰ تعظيم الله جل جلاله، وذلك الذي يتعرض لتحليله وبيانه الباحث في سورة يوسف عليه السلام ودراسته دراسة تحليلية سواء ما يفهم من ذلك ضمنيا أو تلميحا أو تصريحا.

---

(١) سنن أبي داود، لأبي داود، سليمان بن الأشعث، المكتبة العصرية، بيروت، بلا تاريخ، ٤/ ٢٣٢، رقم (٤٧٢٦).

المحور الثاني: تعظيم الله نفسه بنفسه في سورة يوسف عليه السلام

لم يكن في تاريخ العالم كلِّه قديمه وحديثه حديثٌ أحسن من كتاب الله، أو هديٌ خير هديه، والقرآن الكريم بهذا ما زال هو أحسن الحديث لا ريب فيه وحيًا ونزولًا، ولا شكَّ فيه تلاوةً وحفظًا، ولا مرية فيه تجويدًا وقراءةً، ولا إشكال فيه تأملًا وتدبرًا ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وذلك الذي جعل من سورة يوسف إحدىٰ سوره العظيمة فريدة من نوعها وفي موضوعها؛ لأنَّ قصَّة النَّبيِّ يوسفَ عليه السلام بمضامينها ومحتوياتها تمثِّل نموذجًا حيًّا كاملًا متكاملًا في أطرافه لطريقة الإسلام المثلىٰ ومنهجه الأقوم في الأداء الفني الأروع في القصة، وتمثِّل كذلك النَّموذج نفسه في الأداء النفسي والدَّعوي والعقدي والتّربوي والحركي أيضًا، حيثُ إنَّ قصَّة يوسفَ عليه السلام وردت في السُّورة بمثابة معرض متخصص في سرد هذا المنهج ورسمه رسمًا دقيقًا من النَّاحية الفنية للأداء، يقول سيِّد قطب رحمه الله: إنَّ قصَّة يوسفَ -كما جاءت في هذه السورة- تمثِّل النَّموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقِصَّة، بقدر ما تمثِّل النَّموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النَّفسي والعقدي والتَّربوي والحركي أيضًا، ومع أنَّ المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه، إلَّا أنَّ قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء!

وممَّا تقدمه القصة في محتويات مشاهدها المختلفة عرضًا وتحليلًا شخصية يوسف عليه السلام بطل القصة الرَّئيس عرضًا كاملًا ودقيقًا في كلِّ مجالات حياتها وبكل زوايا هذه الحياة. فالذي يتلو آيات هذه السُّورة متأملًا متدبرًا لا بدَّ وأن يعتقد اعتقادًا جازمًا أنَّ نجاح يوسف عليه السلام في كلِّ ابتلاءاته قد صحبه تعظيمُ الله تعالىٰ في كلِّ مواقفه المُرَّة منها والحُلوة. ويقول سيد قطب أيضًا: إنَّ القصة تعرض شخصية يوسف عليه السلام -وهي الشَّخصية الرئيسة في القصة- عرضًا كاملًا في كلّ مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات. وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة؛ وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء. وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان. وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتىٰ المواقف وشتىٰ الشخصيات،

ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلِّها نقيًّا خالصًا متفردًا في وقفته الأخيرة، متَّجهًا إلىٰ ربِّه بذلك الدُّعاء المنيب الخاشع.

وممّا تتميز به هذه القصة، كونها أحسن القصص كسائر القصص القرآنية الأخرىٰ، وذلك من جهة حسن النظم وإعجاز الأسلوب، وبما تتضمنه من العبر والحكم، وإن كان لا يعني هذا كله أن قصة يوسف عليه السلام في هذه السورة أحسن من بقية قصص القرآن. يقول ابن عاشور في (تحريره وتنويره): وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه وبما يتضمنه من العبر والحكم، فكل قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن. وليس المراد أحسن قصص القرآن حتىٰ تكون قصة يوسف عليه السلام أحسن من بقية قصص القرآن، كما دلَّ عليه قوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[يوسف: ٣][(١)].

وأما تعظيم الله بجميع أطرافه وأشكاله في هذه السورة فينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: تعظيم الله نفسه بنفسه سبحانه وتعالىٰ، وتعظيم الله من قبل عباده الصالحين كنبي الله يعقوب وابنه نبي الله يوسف عليهما السلام وإخوته بني يعقوب عليهم الصَّلاة والسَّلام، ثم أخيرًا تعظيم الله من قبل غيرهم من أشخاص هذه القصة خارج بيت النبوة.

وخير تعظيم لله تعالىٰ صُدِّر به كلّ التعظيمات الواردة في هذه السورة، هو تعظيم الله تعالىٰ في المواقف التالية:

أ- تعظيمه تعالىٰ نفسَه بنفسه في إنزاله الكتاب العزيز المعجز.

افتتحت السورة ببعض الحروف المقطعة انتصارًا للقرآن الكريم، حيث قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾، وإيثار ﴿تِلۡكَ﴾ لقصْد التعظيم لهذا الكتاب المبين[(٢)]، والكتاب لا يكون مُعظَّمًا إلَّا من قبل منزله الذي هو معظّم في نفسه وهو الله جلَّ جلاله، وكل ما ربط بهذا الكتاب المعجز الواضح الإعجاز أو المظهر للحق من الباطل، لمن تدبر أنها من عند الله معظَّم بالأشرفية، وذلك كما يقول ابن كثير: لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٠).
(٢) ضياء التأويل في معاني التنزيل (٢/ ١٥٤).

الكتب بأشرف اللغات، علىٰ أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة فكمل من كل الوجوه، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف: ٣][(١)].

فقوله تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ كاستعماله كثيرا مثله في بعض الآيات القرآنية الأُخَر سواء في الابتداء مثل هذا: ﴿ نَحْنُ ﴾ أو في التوكيد كـ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ [يوسف: ٢]. لقد غلب هذا الاستعمال علىٰ غيره في بعض الآيات الواردة في هذه السورة نفسها سورة يوسف كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٢١]، وقوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾، وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [يوسف: ٧٦]، فـ: مكّنّا ولنُعلّمه وآتيناه ونجزي ونرفع ومن نشاء، كلها بمثابة تعظيم المتكلم نفسه بنفسه، وهو أحقُّ بذلك من غيره ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]، وذلك كله تعظيم لفظي بقدر ما كان تعظيما معنويا.

ب- تعظيمه تعالىٰ نفسه بنفسه في اجتبائه يوسف عليه السلام نبيًّا رسولًا، وتعليمه ما لم يكن يعلم من قبل من تأويل الأحاديث وتمكينه في الأرض وإيتائه الحكم والعلم الذي به يحكم علىٰ الناس جزاء منه تعالىٰ علىٰ إحسانه وإحسان آبائه لأنه كان ممن يراه الناس من المحسنين كما أخبر الله تعالىٰ بذلك حين كونه مع الفتيين في السجن، قال تعالىٰ: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾، وكما كان بعد ذلك لم يزل الناس يرونه أيضا من المحسنين، قال تعالىٰ: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾، وجماع الآيات التي تدل علىٰ تعظيم الله نفسه بنفسه في هذا الصدد هي كالآتي: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[يوسف: ٢١]، وهنا كان للشيخ الشعراوي مقال تفسيري دقيق: فهذا قول نافذ؛ لأنه وحده القادر علىٰ أن يقول للشيء كن فيكون؛ ولا يوجد إله غيره ليردّ علىٰ مراده. ولذلك قلنا قديما: إن الله سبحانه وتعالىٰ قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو؛ وهو يملك الرصيد المطلق

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦١٣).

المؤكد بأنه لا إله غيره فهو وحده الذي له الملك، وهو وحده القادر علىٰ كل شيء. ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون علىٰ أن يخططوا ويمكروا؛ متناسين أو ناسين أن فوقهم قيّوم لا تأخذه سنة ولا نوم[١].

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾، وقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾، وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦].

لقد تمّ تعظيمه تعالىٰ بنفسه من خلال هذه الآيات من حيث غلبته علىٰ كل ما أراد من أمر، وتنفيذ ذلك في كل ما شاء حيث ثبتت إرادته ونفذت مشيئته علىٰ شأن يوسف عليه السلام رغم محاولة إخوته جَعْلَ الحيلولة دون تحقق هذا الأمر الإلهي، ومنشأ هذا جهلهم بهذه الحقيقة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٢١].

ج- اثباته تعالىٰ تَفَرُّدَهُ باستجابة دعاء عبده واصفًا نفسَه ببعضٍ من أسمائه الحسنىٰ.

في المرحلة الحرجة التي مر بها يوسف عليه السلام في بيت سيده حيث راودته التي هو في بيتها فاستعاذ الله من ذلك ومن كيد النسوة في المدينة داعيا الله تعالىٰ لينجو من كيدهن، قال تعالىٰ: وقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾، فمحل التعظيم هنا، اسمان من أسمائه تعالىٰ وصفاته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، والإيمان بأسماء الله وصفاته أحد أركان الإيمان بالله تعالىٰ بدءً بالإيمان بوجود الله تعالىٰ والإيمان بربوبيته والإيمان بألوهيته وانتهاءً بالإيمان بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالىٰ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. والسميع: اسم متضمن لصفة كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه لا احتمالا ولا تقديرا، والعليم: اسم من أسماء الله تعالىٰ متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهلٍ ولا يلحقه نسيان[٢].

د- تفضيل الله بعض الخلق علىٰ بعض درجات مرهون بمشيئته، وليس للخلق فيه اختيار. وهذا الذي جعل من مشيئته تختار من يشاء من عباده بالنبوة وبالرسالة وبالعلم وبالحكم والملك والحكمة وبالبسطة في كل ذلك، قال تعالىٰ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦].

---

(١) تفسير الشعراوي (١١/ ٦٨٩٨).

(٢) القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ (٢١)، بتصرف.

المحور الثالث: تعظيم الله تعالى من قبل غيره في السورة

وهذا كذلك يشمل العناصر الآتية:

أ- تعظيم الله تعالىٰ من قبل نبي الله أبي يوسف يعقوب عليه السلام ببعض صفات الله وأفعاله العجيبة.

يظهر هذا جليًّا في ثنائه علىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ نعم الإسلام والإيمان والنبوة والرسالة التي حفّ بها نَسَبُه الكريم من إبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب هو نفسه ثم يوسف عليه السلام مؤوِّلًا رؤياه وهو يحيطه علما بأن ما سيكون من أمره العجيب في كل مراحل حياته، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾، واستعانة يعقوب عليه السلام ربَّه، فإنه أولىٰ وأحق من يستعان به في كل الأمور، وذلك عندما عَظُمَ في نفسه أمر إخوة يوسف فساءه ذلك فاستعان بربه معظِّما له وهو الله المستعان وهو أرحم الراحمين، وهو الرب المتوكل عليه ومن يشكىٰ إليه وحده الحزن والبث، وهو المسند إليه العلم كله، وهو الغفور الرحيم وكفىٰ به وكيلا، وهو المحكم الأمر إليه كله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]، وقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

ب- تعظيم الله تعالىٰ من قبل نبي الله يوسف عليه السلام وهو بطل القصة في منن الله وآلائه عليه من بداية القصة إلىٰ آخرها.

ج- تعظيم الله باستعاذته من الوقوع في المعصية التي لا تليق بجانب النبوة، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، ومعاذ: مصدر أضيف إلىٰ اسم الجلالة إضافة المصدر إلىٰ معموله. وأصله: أعوذ عوذا بالله، أي أعتصم به مما تحاولين، وذلك الامتناع والاعتصام من يوسف عليه السلام بالله الذي اقتضىٰ أمره بذلك الاعتصام تعظيما له وتقديرا لجلاله وخوفا من عذابه.

د- توحيد الله وتنزيهه من كل شوائب الشرك والإلحاد والزندقة، وهذا ما خلص إليه وعظه وإرشاده لأصحابه في السِّجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾، ولا تعظيم أجلَّ من ذلك.

هـ- تواضعه لله واعترافه بضعف النفس البشرية تعظيما له ورجاء المغفرة والرحمة منه سبحانه وتعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

و- إرجاع العلم بأسرار الأمور في الأقضية التي تجرىٰ في المحاكم والقصور أمام القضاة والأمراء وتفويض العلم بحقائقها إلىٰ الله تعالىٰ قصد تعظيمه، ومن ذلك تحكيم الله في كل الأمور تحكيما خالصا بدون تردد، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

ز- شكر يوسف عليه السلام لله تعالىٰ آخرَ الأمر علىٰ ما منَّ به عليه وعلىٰ أخيه الشقيق ثم أبويه من الإسلام والإيمان والرسالة والملك والعلم بتأويل الأحاديث، ويوسف عليه السلام يصف ربه برحمانيته الأقوىٰ من غيرها ويستغفر لإخوته ليرفع الله عنهم التثريب فكان من خير ما عظّم الله به يوسف عليه السلام بهذا الصدد، كما ورد في هذه الآيات: قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾، وقوله: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

ح- والقارئ يلمس إثبات يوسف عليه السلام بعض أسماء الله وصفاته في هذه الآية بشكل يليق بوجهه الكريم في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بتعريف الصفتين، لأنه معهود في الذهن، وقد سبق إثبات ذلك لله تعالىٰ فيما حكاه الله تعالىٰ عن يعقوب عليه السلام. قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ بالتنكير، وقد يحمل التنكير علىٰ الوحدة ويكون المراد عليم واحد، فيكون التنكير للوحدة والتعظيم، وهو الله تعالىٰ[1]. ويفيد ذلك أن من قصد تعظيم الله تعالىٰ في تدبره ودعائه متوسلا بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أدرك أنها صفات جلال وما يدريك أنها صفات جمال،» فالله سبحانه وتعالىٰ موصوف بالجبروت والقهر والعزة والانتقام وموصوف كذلك بالحكمة وبالرأفة والرحمة والإحسان والإنعام.

ومن عظّم الله بهذه الصفات أو شيء منها عرف ربه رحمانا رحيما، عزيزا حكيما، سميعا بصيرا، حيًّا قيوما، غنيا حميدا، خبيرا بصيرا، قهارا قديرا، ذا قوة متينا، لا يخفىٰ عليه شيء ولا يعجزه شيء، فعالا لما يريد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

هذا، فقد وجد العبدان النبيّان الرسولان الأب والابن، يعقوب ويوسف عليهما وعلىٰ رسولنا أفضل الصلاة والتسليم بذلك نفسهما مَدْفُوعَين إلىٰ الاستناد إلىٰ الله الواحد القهار معظِّمَين له ومتوكِّلَين عليه.

ط- تأدُّبه مع الله معظِّمًا له في قوله فيما حكاه الله عنه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾، وجملة إن شاء الله دعائية فيها تأدب مع الله كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمن، فوقوعه في الوعد والعزم والدعاء بمنزلة وقوع التسمية في أول الكلام وليس هو من الاستثناء الوارد النهي عنه في الحديث: أن لا يقول اغفر لي إن شئت، فإنه لا مكره له لأن ذلك في الدعاء المخاطب به الله صراحة. وجملة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ معترضة بين جملة ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ والحال من ضميرها[2].

ي- تعظيم الله تعالىٰ من قبل بعض أشخاص القصة كإخوة يوسف عليه السلام، ونسوة في المدينة وغيرهم.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٠١).

(٢) المصدر السابق (١٢/ ١١٨).

وذلك في الأمور والمواقف المهمة الملتقاط من أدوارهم التي قاموا بها في هذه القصة ويظهر ذلك في الاستعاذة والقسم، أما القسم فقد كان من إخوة يوسف عليه السلام كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾، وقوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾، وقوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾، والتاء في ﴿تَاللَّهِ﴾ حرف قسم علىٰ المختار ويختص بالدخول علىٰ اسم الله تعالىٰ، ويختص أيضا بالمقسم عليه العجيب[١]، وذلك توكيد الشيء بذكر اسم أو صفة لله وقيل: توكيد الحكم أو القول بذكر معظَّم علىٰ وجه مخصوص بحيث يكون ذلك مرتبطا بتعظيم الله سبحانه وتعالىٰ[٢]، وبالتالي فإن من تعظيمه جل وعلا أن يصان اسمه من الابتذال بكثرة الحلف بغير حاجة أو ضرورة ملحة، والمقصود من حلف اخوة يوسف عليهم السلام اشهاد الله علىٰ صدقهم فيما قالوه. ويؤكد الإمام السعدي أن المقصود من اليمين والقسم تعظيم المقسم به وتأكيد المقسم عليه[٣].

ولما رأت النسوة يوسف متمثَّلًا أمامهم بشخصيته العجيبة أعظمْنَه وأكبرْنَه لفائق جماله، ولأنّهن رأين عليه نورَ النُّبوَّة وسيمَا الرسالة وإزارَ خضوع الأخيار وهيبةَ الملائكة بعدم الالتفات إلىٰ المنكوح والمطعوم الأمر الذي أوقع الرُّعب في قلوبهنَّ، فقلن: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]. وحاش، حرف جر استعمل مصدرا بمعنىٰ: تنزيها لله، ويفيد أيضا معاذ الله، لأن ذلك كلمة للبراءة والتنزيه[٤]، ويفسر البيضاوي ذلك بقوله: أي تنزيها لله من صفات العجز تعجبا من قدرة الله علىٰ خلق مثله، لأنه حسبما ورد في حديث المعراج الطويل، عن أنس مرفوعا: «ثمَّ عُرِجَ بي إلىٰ السماء الثامنة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال جبريل، قيل ومن معه؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: وقد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنما بيوسف ﷺ، إذا قد أعطي شطر الحسن»[٥].

---

(١) المصدر نفسه (١٢/ ٢٦).

(٢) التاج والإكليل لمختصر خليل (١/ ٢٢٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١٠٠).

(٤) ضياء التأويل في معاني التنزيل (٢/ ١٦٢)، بتصرف يسير.

(٥) حديث طويلٌ أخرجه مسلم (١٦٢).

وأصله حاشا بالألف كما قرأه أبو عمرو في الدرج، فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفا، وهو حرف يفيد معنىٰ التنزيه في باب الاستثناء، فوُضِعَ موضع التنزيه، و(الله): في (لله) بعد حاش للبيان، كما تقول: سقيا لك، وقيل: فعل من الحشا الذي هو النهي، فاعله ضمير يوسف -أي: حاش يوسف لله- أي صار في ناحية الله مما يتوهم فيه[1]. ومثل ذلك مفهوم بوضوح في قوله: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١]، وكل ذلك تنزيه لله وتأدُّب من قدرته علىٰ خلق عفيف مثل يوسف عليه وذلك تعظيم منهن لله رب العالمين في شأنه بيوسف.

فالقسم بـ تالله، والاستثناء بـ إن شاء الله، والاستعاذة بـ معاذ الله، وحاش لله قُصِدَ بها تنزيه الله في المرات التي وردت في هذه السورة لتفيد إفادة واضحة معنىٰ تعظيم الله تعالىٰ، ويدلّ علىٰ ذلك صحبتها ومقارنتها باسم الجلالة، وهو الله.

ومهما يكن من أمر، فلقد أعقب ذكر نعم الله تعالىٰ علىٰ يوسف عليه السلام بتوجهه إلىٰ مناجاة ربه في آخر قصته بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمىٰ في الآخرة، فذُكر في الآية ثلاث نعم في صورتين: أولاهما نعمتان دنياويتان، وهما نعم العلم ونعمة الولاية، والثانية أخروية وهي نعمة الدين الحق المعبر عنه بالإسلام، وجعل ما أوتيه بعضا من الملك ومن التأويل لأن ذلك من جنس الملك وبعض من التأويل إشعارا بأن ذلك في جانب ملك الله وفي جانب علمه تعالىٰ شيء يسير، وجزء قليل ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، فورد هذا الشكر والثناء علىٰ الله علىٰ هذه النعم الثلاث ونحوها عبارةً دقيقةً عن تعظيم الله العزيز العليم الحكيم، ثم تلا ذلك تزييل هذه القصة عند انتهائها والإشارة إلىٰ ما ذكر فيها من الأحداث بقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ بأسلوب رائع نظما وبلاغة، وعلىٰ النمط الذي به بدأت القصة في السورة، حيث قال تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾. وهكذا يتوافق مطلع هذه السورة وختامها كما توافق مطلع القصة الواردة فيها وختامها. وتعظيمًا لله علىٰ وجه يليق به يدعو في الأخير يوسف عليه السلام ربَّه المعظَّم بقوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وإنّ طلب توفِّيه علىٰ الإسلام دعاء يسأل به ربه العظيم

---

(١) تفسير البيضاوي، بتصرف يسير.

الدوام عليه إلىٰ الوفاة لأنه هو الوحيد القادر علىٰ ذلك، وهو دعاء جامع لطلب ما في هذه الحياة الدنيوية من حسنة وما في الآخرة من حسنة والوقاية من عذاب النار، وذلك مفاد دعائه الذي يقول فيه: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١]. وذلك من قبيل الخبر في إنشاء الدُّعاء لدىٰ أرباب البلاغة العربية، وإن كان لا مانع من إمكان حمله علىٰ الإخبار بالنسبة لولاية الدنيا. وقد قيل: لإثباته ذلك الشيء لولاية الآخرة، والمعنىٰ: كن وليي في الدنيا والآخرة، وبهذا كملت بين يدي هذه السورة وبطل قصتها نبي الله يوسف أركان تعظيم الله -عزَّ وجلَّ- في السَّرَّاء والضَّرَّاء وحين البأس، كما كملت لديه عليه السلام عناصر تعظيم الله في العبادات والسياسات.

الخاتمة

في هذا العرض السريع تناول هذا البحث عناصر عديدة توحي أن مشاهد القصة الواردة في سورة يوسف كلها بما فيها من مفاجئات وابتلاءات أدت بأبي بطل القصة يعقوب عليه السلام إلىٰ الألم والضيق والامتحان والابتلاء، والشوق المضني والحزن الكامل واللهف الظامئ الشديد حافلة بالانفعال والخفقات أولا وبالفرح والدموع أخيرا، وكل موقف من مواقفها محفوف بتعظيم الله جل وعلا بذكره وتسبيحه وتنزيهه وتفويض الأمر إليه وحده، ثم الاستعانة به في كل الأحداث والوقائع الجارية في القصة من خلال هذه السورة، وبالاستعاذة وبالخضوع التام لمشيئة الله تعالىٰ الغالب علىٰ أمره، وأخيرا بالشكر والثناء عليه علىٰ نعمه العديدة الأمر الذي يبرهن بما لا يدع مجالا للشك أن هذه السورة تعلقت كثيرا من وجوه عديدة بتعظيم الله الواحد القهار سواء بالتصريح أو التضمين أو التلميح.

وعلاوة علىٰ ذلك، فإن سورة يوسف في شكلها ومضمونها تمثل مدرسة حياتية ينبغي أن يؤمها أصحاب القلوب النيرة وذوو البصائر السليمة لما تحتوي عليه من حكم وعبر في الدين والحياة. غاية ما في الأمر أن الباحث يوصي أرباب المعرفة وأساطين تفسير كلام الله الحميد أن يعيروا اهتمامهم نحو دراسة هذه السورة دراسة علمية تحليلية مكثفة استكشافا لبعض الكنوز الثمينة الكامنة في أصداف بحر معانيها اللجي، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات].

مصادر البحث ومراجعه

- القرآن الكريم، مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الإصدار ٠ , ١، ١٤٢٦هـ.
- التاج والإكليل لمختصر خليل، محمد بن يوسف، بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرنطي، أبو عبد الله المواك المالكي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ = ١٩٩٤م.
- التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ، بدون تاريخ.
- التوقيف علىٰ مهمات التعاريف، للمناوي، زين الدين عبد الرؤوف، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، (١٤١٠هـ).
- تفسير البيضاوي، البيضاوي، ناصرالدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، دار الفكر – بيروت (بدون تاريخ).
- تفسير الشعراوي، للشيخ الشعراوي، محمد متولي، أخبار اليوم قطاع الثقافة (بدون تاريخ).
- تفسير القرآن العظيم، المسمىٰ تفسير ابن كثير، للدمشقي الحافظ عماد الدين، أبي الفداء، إسماعيل بن كثير القرشي، مكتبة دار الفيحاء، دمشق، ومكتبة دار السلام، الرياض، ط/ ٢، ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
- الجامع الكبير- سنن الترمذي، للترمذي، محمد، بن عيسىٰ، أبو عيسىٰ، دار الغرب، بيروت، ١٩٩٨م.
- الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، للبخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، دار طوق النجاة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، (١٣٨٤هـ).

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي، أبو زيد، عبد الرحمن ابن مخلوف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، (١٤١٨هـ).
- جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، (١٤٢٠هـ).
- سنن أبي داود، لأبي داود، سليمان بن الأشعث، المكتبة العصرية، بيروت، بلا تاريخ.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.
- ضياء التأويل في معاني التنزيل، للعلامة ابن فودي، أبي محمد عبد الله بن محمد بن عثمان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٨٠هـ= ١٩٢١م.
- القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط، للفيروز أبادي، مجد الدين، محمد، بن يعقوب، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، (١٤٢٦هـ).
- القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ، للشيخ محمد صالح العثيمين، مكتبتا أصداء المجتمع وأضواء السلف، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.
- لسان العرب، للإفريقي، جمال الدين، ابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤١٤ه).
- مسند أحمد، للشيباني، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ.